

تداعيات انحسار المد الإسلامي وألويات المواجهة العالم الإسلامي: التحولات، التحديات وآليات المواجهة

مجلة الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة أم درمان الإسلامية، العدد الثاني/يناير/كانون الثاني ٢٠٠٦م
(في الأصل ورقة قُدمت في مؤتمر كلية الشريعة بجامعة جرش بالأردن، المؤتمر العلمي السابع: "تداعيات انحسار المد
الإسلامي، ديسمبر ٢٠٠٥)

بروفيسور/ عبده مختار موسى

قسم العلوم السياسية – جامعة أم درمان الإسلامية

drmukhtar60@gmail.com

mukhtar@oiu.edu.sd

<https://orcid.org/0000-0002-5927-8344>

مقدمة:

التحولات والتغيرات التي تطرأ على أية أمة هي نتاج لتراكمات فترات طويلة من التطور البطيء الذي قد يظهر في مرحلة ما وكأنه نقلة أو ثورة بسبب ظهور قائد (أو قادة) وعباقرة يلهمون الشعوب ويحركونها بصورة تحدث هزة في البناء الاجتماعي والمؤسسات القائمة. فتصبح تلك مرحلة فاصلة أو نقطة تحول في سيرورة الأمة. إن التاريخ هو حلقات متصلة وأحداث مترابطة لا يمكن النظر إلى حلقة منه بصورة منفصلة عن مجمل حركة التاريخ الإنساني. وأعتقد أن هذا هو المقصود بفلسفة التاريخ.

يتفق الباحثون أن من وجهة النظر التاريخية العالمية على أن أبرز سمة للمرحلة المبكرة للإسلام هو موضوع نشوء دين عربي، على نطاق محدود نسبياً، وتحوله إلى حضارة عالمية، أو بالأحرى أول حضارة عالمية حقيقية عرفها التاريخ.^١ بالنسبة للعرب شكلت الفتوحات الإسلامية بداية حقبة تاريخية دامت ألف سنة، منذ القرن السابع الميلادي وحتى القرن السابع عشر؛ وهذه الحقبة شهدت أبرز حضارات العالم القديم: الإغريقية الرومانية، والسامية الإيرانية، والسنسكريتية، والمالية الجاوية والصينية.

ولاحظ الباحثون أن المسلمين استخرجوا عناصر من هذه الحضارات المختلفة وبالأخص منها الإغريقية والفارسية والهندية وأضافوها إلى تراثهم العربي لإنشاء حضارة مميزة مثلت أكثر الحضارات التي شهدها العالم حيوية وقدرة على البقاء. وهنا نشطت عوامل عديدة هي: ظهور

مؤسسات الدولة والمراكز المدنية التي مثلت بؤراً لنمو الحضارة الإسلامية، واهتداء الشعوب الخاضعة للحكم الإسلامي إلى الإسلام؛ وقدرة الحضارة الإسلامية على استيعاب وتكييف وتحويل ثقافة الحضارات المجاورة؛ وإنشاء المؤسسات الاجتماعية الدينية التي مكنت الحضارة الإسلامية من البقاء، وحتى الازدهار، بعد أن آلت السلطة المركزية إلى الزوال.^٢

جذور التحولات وطبيعة التحديات

ويعترف بعض المستشرقين، مثل مارشال هودجسون (أمريكي توفي عام ١٩٦٨)، بأن الحضارة الإسلامية من أعظم الحضارات التي سادت من القرن العاشر حتى السابع عشر؛ حيث انتقلت السيطرة إلى الغرب ابتداءً من عصر التنوير والنهضة والموجة الصناعية الأولى والثانية ثم الثالثة. فالإسلام تأسس كإمبراطورية كبرى على يد الطبقة الماركنتلية في الدولة الأموية وهم أصلاً تجار مكة الذين استقروا في الشام. وكان العلماء إما من أسر ماركنتلية (تجارية) أو هم أنفسهم تجار وكانوا هم الأكثر إخلاصاً في دعمهم للشريعة. فظهرت عناصر ماركنتلية كوزمبوليتية في الإدارة وأقاموا نظاماً بيروقراطياً فعالاً.^٣ ولاحظ هودجسون (M. Hodgson) أن مؤسسة الإسلام لم تقم على البدو المغيرين بل كان فتحاً بالحراك الاجتماعي وإعادة تشكيل تدريجي.

لقد نشأت المجتمعات الإسلامية من حصيلة تفاعل المجتمع المحلي مع التأثيرات الشرق أوسطية. أما المجتمعات الإسلامية الحديثة فهي حصيلة تطور المجتمعات الإسلامية المحلية مع التأثيرات الأوروبية. بعد استقلال الدول الإسلامية بعد الحرب العالمية الثانية نشأت نخب جديدة. ظهر فيها تياران:^٤

١. إسلامي تحديثي أو قومي علماني يريد تجديد الإسلام بما يتناسب مع نظام أوروبا الاقتصادي والسياسي.

٢. إسلامي أصولي يريد إعادة تنظيم المجتمع على أسس دينية.

وفي داخل التيار الأول (الإسلامي التحديثي) برز اتجاهان: أحدهم تحديثي إسلامي تبنته الإنجليز والفرنسيون والنخب السياسية منذ القرن التاسع عشر؛ والثاني إصلاحية إسلامية تبناه العلماء.

لقد مرت الأمة الإسلامية بتحويلات كبيرة. يرى البعض أن هذه التحويلات هي نتاج لأزمات داخلية عبر مراحل تاريخية طويلة. ومن هذه الأزمات: ١- أزمة الهوية؛ ٢- أزمة الشرعية؛ ٣- فساد الحكم والقهر؛ ٤- صراع الطبقات؛ ٥- العجز العسكري؛ ٦- الأزمة الثقافية.

أحد الباحثين المستشرقين تتبّع هذه الأزمات وما لازمها من تطورات وتحولات منذ بدء الإسلام وحتى الأصولية الحديثة. فلاحظ أن التحويلات الكبرى جاءت نتيجة لأزمات داخلية وتحديات خارجية.^٥ مثلاً لاحظ أن مشكلة الخلافة جاءت بالأمويين. وأن سقوط الأمويين جاء بعمر بن عبد العزيز (ت ٧٢٠) وأبو حنيفة (٦٩٩ - ٧٦٧)، والإمام مالك (٧١٤ - ٧٩٨)، والشيعية والثورة

العباسية (٧٥٠). ثم ضَعَف العباسيين جاء بابن حنبل (٧٨٠ - ٨٥٥)، والشافعي (٧٦٧ - ٨٥٤)، وظهور الشيعة الإسماعيلية: القرامطة (٨٩٠) وعبيد الله المهدي (٩٠٩). ثم سقوط الأمويين بالأندلس جاء بابن حزم (ت ١٠٦٤). سقوط الفاطميين والصليبيين جاء بصلاح الدين الأيوبي (١١٦٩ - ١١٩٣). سقوط العباسيين وانتصارات الترك والمغول جاءت بالنووي (ت ١٢٧٧م)، وابن تيمية (ت ١٣٢٨)، وابن كثير (ت ١٣٧٣). الغزو المغولي والفتنة جاءت بالشيعة مرة أخرى: الحلبي (ت ١٣٢٥) والمشعشع (ت ١٤٦٢) وشاه إسماعيل (ت ١٥٢٤). ضعف العثمانيين جاء بعبد الوهاب (ت ١٧٩١) والسنوسية في ليبيا (١٨٠٠) والمهدية في السودان (١٨٨٠ - ١٨٩٨)، والسلفية (١٨٩٠)، والأفغاني (ت ١٨٩٧) ومحمد عبده (ت ١٩٠٥) ورشيد رضا (ت ١٩٣٥). ثم بيئة الأزمة الإسلامية المعاصرة جاءت بالإخوان المسلمين في مصر (١٩٣٠) بقيادة البنا والسباعي وقطب، والمودودي في آسيا والثورة الإسلامية في إيران (١٩٧٩) وبقاقر الصدر وشريعتي والتلمساني، وراشد الغنوشي (في تونس)، وحسن الترابي (في السودان).

أي بمعنى أن كل مرحلة من الأزمة والضعف تؤدي على إطلاق استجابة إحيائية (revivalism) - حركة عودة إلى الجذور الإسلامية بقيادة شخصية أسرة أو ملهمة (charismatic leader).^٦ بعض هؤلاء القادة يتخذون دور "المجدد" الذي يجدد العقيدة، بينما يحاول آخرون إحداث تغيير اجتماعي وسياسي عن طريق حركة إصلاح (reformation) مثل الأفغاني؛ أو خلاص salvation مثل المهديوية (Mahdism).

مثلاً كانت الفترة من القرن السادس عشر والثامن عشر هي فترة ازدهار العالم الغربي وركود وتخلف للعالم الإسلامي؛ كذلك الآن أدرك الغرب أن العالم الإسلامي يمر بأسوأ حالاته - من ضعف وتشردم وغياب الإرادة السياسية، وأصبح قابل للاختراق. لذلك دعا البعض إلى "تجديد أيديولوجية التجديد نفسها".^٧ فأيديولوجية التجديد التي بدأها الأفغاني ومحمد عبده وتلاميذهما نحتاج الآن إلى روحها مع تعديل منهجها ليناسب أدوات الصراع وأسلحة العصر. نحتاج إلى منهج وخطاب يناسبان طبيعة الأزمة وحجم التحديات.

آليات العمل لمواجهة التحديات:

لا شك في أن العصر الحديث الذي نعيشه له أدوات وأساليب وأسلحة مختلفة عن تلك التي كانت سائدة في الصراع الحضاري القديم. وهذا يتطلب أدوات جديدة للعمل لمواجهة التحديات التي يطرحها عصر العولمة. وتقتصر هذه الورقة الآليات التالية كأدوات للعمل في هذا السياق: أولاً: تجديد الخطاب، ثانياً: تأصيل الإعلام، ثالثاً: تفعيل دور المثقف، رابعاً: توظيف المؤسسات لمواجهة التحديات، خامساً: إصلاح التعليم.

أولاً: تجديد الخطاب الإسلامي:-

رغم عصور التحولات الكبرى التي شهدتها الحضارات إلا أن الأمة العربية الإسلامية تعيش في أزمة حضارية حقيقية. وأسوأ تعبير عن هذه الأزمة هو أن تأتي قوة خارجية وتدعي أنها تملك الحل وتطرح برنامج للإصلاح أطلقت عليه الشرق الأوسط الجديد. هو مشروع في جوهره يقوم على إعادة تشكيل الشخصية العربية المسلمة وفق الرؤية الأمريكية بما يحقق مصالحها ويعمم مشروعها الحضاري في العالم لأن هذه المنطقة هي قلب الحضارات العالمية. وهو أيضاً مشروع ينطوي في جوهره على احتواء القوة الناهضة في المنطقة المتمثلة في مؤسسات المجتمع المدني وما تضمنه من نخب مثقفة. وهذا يعني أننا أصبحنا قوة مبعثرة وتحتاج إلى خطاب لإعادة توحيد أو الموقف والرؤية والإرادة. فما هي سمات الخطاب المطلوب لهذه المرحلة؟

إن الخطاب الإسلامي المعاصر يجب أن ينطلق من رؤية فلسفية ترتكز عليها حركة تجديد معاصرة. فمسيرة الخطاب الإسلامي المعاصر امتدت على ما يقارب قرناً ونصف وتحتاج إلى إعادة نظر لمواكبة المستجدات. يرى البعض أن خطاب التجديد الإسلامي الذي كان سائداً منذ قرن ويعتبر نفسه وريث الإصلاحية كان "يركز على تطهير الدين من الغبار المتراكم عليه"،^٨ وإبراز الإسلام الحقيقي الذي حجبه التصورات الخاطئة. يجب تجديد الخطاب الإسلامي القديم لأنه كان ينحصر في تخليص الدين من الانحرافات والبدع. كان هذا المنظور السلفي يقف ضد الحداثة حيث كان متمسكاً بالتراث والتاريخ "كمرجعية يعتمد عليها لشرعنة ذاته مكنفياً بكفاءة المرجعية التراثية للخروج من المحنة؛ بينما الإصلاحي هو أكثر انفتاحاً حيث كان يحاول إيجاد صيغة يبرر بها علاقته مع الغرب من جهة، ويثبت قدرة الإسلام على التطور من جهة أخرى، عن طريق تبيئة المصطلحات والمفاهيم الجديدة في إطار المنظومة السلفية وتأصيلها فيها".^٩ وهذا يعني التخندق بالخصوصية. وهو مفهوم طرحه لأول مرة مالك بن نبي. وتبعاً لذلك أصبحنا أمام موقفين أو تيارين: "الإصلاحي يحاول حدثنة الإسلام، والتجديدي يحاول أسلمة الحداثة وعلومها؛ أي أنه يتقبل الحداثة مع بعض التعديلات".^{١٠}

للخروج من الأزمة يرى بعض التجديديين في الحداثة تارة قارب النجاة، بينما تراهن بعض الاتجاهات الإسلامية على الممكن الذاتي. إن ما يميز الخطاب الإسلامي الجديد هو ذلك التوازن النفسي في زوال سحر الغرب والتراث معاً. فرويته تقوم على اعتراف بالغرب ولكن بروح نقدية متقدمة. فهو أكثر وعياً بالحدثة وما بعدها، ويمتلك في الوقت ذاته رصيد تجربة تاريخية امتدت لأكثر من قرن، بحيث أصبح على معرفة بمشكلات التجديد واشكالياته ليحاول حلها وتقديم بعض الاقتراحات كالانتقال من مقاربات التجديد الفردية إلى العمل المؤسسي. ومن التنظير إلى التطبيق والدعوة إلى فهم الذات والأخر لمحاولة معرفة الأسس النفسية والأيدولوجية التي تحكم العلاقة بينهما.^{١١}

إن النظرة الناقدة أو الخطاب النقدي للغرب مهم لكشف عيوب الحضارة الغربية سواء كان على المستوى النظري أو مستوى الممارسة لا سيما في القرن العشرين حيث دخلت هذه الحضارة الغربية في أزمة فهي أدخلت العالم في حربين عالميتين وارتكبت جرائم وفظائع ضد شعوب آسيا وأفريقيا ومارست نهياً استعمارياً مدمراً وتفككت فيها الأسرة وضعف بناؤها الاجتماعي. وقد ظهرت الأصوات الناقدة من داخل المنظومة الغربية نفسها. فقد وصفها روجيه جارودي بأن هذه الحضارة "قادرة على بناء قبر يكفي لدفن العالم."^{١٢}

إن من أهم سمات الخطاب الإسلامي الجديد الذي يجب تعزيره هو أنه "ليس اعتذارياً. ولا يرفض حملة الخطاب الجديد الغرب بشكل قاطع، ولا يصور الغرب باعتباره مصدراً لكل الشرور. لكن ما يرفضه الخطاب الإسلامي الجديد هو المركزية العالمية التي يضيفها الغرب على نفسه. كما يرفض الخطاب الإسلامي الجديد الإمبريالية الغربية المرتبطة بادعائه المركزية."^{١٣}

الخطاب الإسلامي الجديد – المطلوب – يجب أن يكون عقلانياً وواقعياً. فهو يملك رؤية متكاملة وانفتاح نقدي. فهو يدرك أن بالغرب جوانب مشرقة يمكن التفاعل معها مثل الحاسوب ونظريات الإدارة والمعمار والآفاق الواسعة التي فتحتها الحداثة الغربية ولكنه في ذات الوقت يميز بين إنجازات الغرب وقيمه. والخطاب الجديد – كما يرى الدكتور عبد الوهاب المسيري – هو توليدي استكشافي ينطلق من أرضية إسلامية، يفتح باب الاجتهاد بالنسبة للمنظومة الغربية والموروث الثقافي الإسلامي. وهذا الخطاب يطرح على المستوى الجماهيري شعار: (الإسلام هو الحل)، ولكن على المستوى الفلسفي يطرح شعار (الإسلام هو رؤية للكون)."^{١٤} فهو يصدر عن رؤية معرفية شاملة يوحد منها منظومات فرعية مختلفة: أخلاقية وسياسية واقتصادية وجمالية... كذلك من سمات الخطاب الإسلامي الجديد المطلوب تفعيله هو أنه لا يجد مبرراً للمواجهة مع الحركات القومية ذات التوجه العلماني. فالخطاب الإسلامي الجديد يقبل التنوع الحضاري داخل إطار الوحدة الإسلامية العالمية، كما أنه يدرك أهمية التحالف مع العناصر القومية في المواجهة العامة مع الإمبريالية العالمية والنظام العالمي الجديد.^{١٥}

ثانياً: تأصيل الإعلام

الحديث عن الخطاب الإسلامي المعاصر يقود إلى الخطاب الإعلامي الناقل له. في عصر العولمة يصبح للخطاب الإعلامي دوراً أكبر وأهم حيث تواجه الأمة الإسلامية حرباً حضارية شرسة وفتن دينية وعرقية وتحديات كبيرة تحتاج لخطاب في مستوى التحديات. هذا لا يتأتى إلا من خلال منهج توحيدي وتأصيلي وتجديدي ليوكب خطاب العصر.

غير أن معالجة إشكالية الخطاب الإعلامي في عصر العولمة يستدعي رؤية فلسفية ومنهج وأدبيات كثيفة لنضع الإطار العام الذي به يمكن توليد اللغة المناسبة وتوحيد الخطاب الإعلامي الإسلامي المعاصر.

ليس المقصود بالإعلام الإسلامي علم جديد أو رفض لكل أساليب الإعلام القائمة حالياً، بل صبغ الإعلام الحالي وقنواته المتجددة وأنماطه الحديثة بصبغة إسلامية بحتة تلائم المجتمع المسلم. وهذا يستلزم اجتهاد واستنباط لوضع أسس أو مبادئ تؤطر لتأصيل إعلامي ينطلق من منهج علمي يستوعب متطلبات مضمون الرسالة الإعلامية الإسلامية من ناحية ويعمل على تطويع أو تكييف التقنيات الحديثة في الإعلام المعاصر – من ناحية أخرى- لخدمة الرسالة الإعلامية الإسلامية فليس الواقعية أن نعمل بمعزل عن تقنية الاتصال الحديث كما ليس من الصائب دينياً أن نستسلم بصورة مطلقة لتأثير الإعلام الدولي أو نخضع لمؤثراته القوية وبالتالي نتأثر بمضمون رسالته التي قد تتعارض مع عقيدتنا وقيمنا الإسلامية. أن الإعلام "يجب أن ينطلق من القيم والمفاهيم التي تسيطر على المجتمع الذي يعمل فيه ، وعليه أن يخضع في برامجه وخطه لعقيدة ذلك المجتمع . وذاك مطلب أساسي وعادل لا يختلف عليه اثنان." (١٦)

إن الإعلام الإسلامي يعني أن نبث وننشر أفكارنا ودعوتنا وراثتنا الإسلامي باستخدام أحدث وسائل الاتصال والإعلام المعاصرة، كما يعنى تكييف هذه الوسائل والأجهزة الحديثة بألقها الإلكتروني وفنونها الجذابة وطرحها الشيق للتعبير عن الشخصية الإسلامية لبث القيم الإسلامية وإحلالها محل القيم الدخيلة على الإسلام والمسلمين. لكن ذلك يستدعي النظر في كيفية تقديم التراث الإسلامي في شكل إعلامي جذاب بصورة حيوية تخلو من الجمود دون أن يؤثر ذلك على جوهر التراث أو يشوه قيمه الأصيلة. لذلك يجب " أن نقدم المضامين الإسلامية بصورة فنية تبرز عظمتها وتزيدها مهابة واحتراما وإجلالاً لدى المسلمين ليحبوها ويعملوا بها لتصبح منهج حياتهم ولتصبح هي سلوكياتهم." (١٧)

غير أن تحقيق هذه الأهداف من خلال تلك الوسائل والوظائف ينبغي أن تتم في إطار التصور الإسلامي الشامل الذي يركز على البناء المعرفي الإسلامي بعناصره ومصادره (الوحي – السنة – التراث الإسلامي والعقل الناقد والمتدبر في الكون) . إن اتساق التأصيل الإعلامي مع هذا البناء المعرفي يستدعي صياغة مبادئ عامة – أو نظرية إسلامية – ينطلق منها ويستترشد بها الإعلام الإسلامي على المستوى النظري والعملي في تحقيق أهدافه ورسالته. وهذا يعني ضرورة صياغة نظرية إسلامية للإعلام التي ينبغي على علماء المسلمين أن يحددوا أسسها ومعالمها وخصائصها التي تميزها عن تلك النظريات الغربية التي تقوم على منطلقات مادية علمانية. بدون هذه الخطوة ليس من الصائب أن نتحدث عن وجود إعلام إسلامي في واقعنا المعاصر. كما أن

صياغة نظرية إسلامية في الإعلام خطوة لازمة وسابقة للخطاب الإعلامي المطلوب للمجتمع العربي المسلم.

الخطوة التالية في بناء الخطاب الإعلامي الإسلامي هي النظر للصحفي المسلم – وكذلك الداعية – باعتباره أهم الأعمدة في الخطاب الإسلامي. لذلك على الصحفي العربي-المسلم أن يتمثل التصور الإسلامي في أداء رسالته. يجب على الصحفي المسلم أن يؤدي وظيفته في إطار هذه المبادئ: أولاً: الصدق، ثانياً: التقوى، ثالثاً: الأخلاق، رابعاً: الدعوة والتبليغ، خامساً: الرقابة الذاتية.

إن ضرورة وجود خطاب إعلامي إسلامي معاصر ينبغي أن ينطلق من رؤية إسلامية تقوم على منهج تأصيلي. إن تأصيل الخطاب الإعلامي يعني الالتزام بالجانب الأخلاقي في الطرح والصدق والأمانة في أداء الرسالة. وعليه يمكننا أن نتحدث عن خصائص محددة للخطاب الإعلامي الإسلامي مثل: ١- الموضوعية، ٢- العقلانية، ٣- المعاصرة، ٤- الوضوح والبساطة والمرونة، ٥- الاتساق وتجاوز التناقضات. أي أننا نحتاج إلى خطابٍ موضوعي وعقلاني ومرن وفاعل ومعاصر.

لكي يكون خطابنا موضوعياً، يجب أن يكون واقعياً. ولكي يكون عقلانياً يجب أن يبتعد عن الإثارة والتهريج والغوغائية والديماغوجية. ولكي يكون فاعلاً ومعاصراً يجب أن يتجه إلى الجماهير مباشرة وللرأي العام المحلي والعالمي وبكل الوضوح والاتساق وخال من التناقضات وأن يجسد الفعل وليس ردة الفعل. يتسم بالمرونة يعني الابتعاد عن الجمود والتشدد أو التطرف. وأن يتسم بالحيوية والتجدد فدائماً ما نفقد الجمهور المستهدف بسبب الجمود والتكرارية مما يسبب الملل الذي يبعد المتلقي بسبب الإطناب والإسهاب والمقدمات الطويلة والتي تكون على حساب التركيز على النقاط المركزية في الرسالة التي يهدف الخطاب إلى نقلها. كذلك أن يتخلص من النمطية والقوالب الجاهزة مثل ترديد مقولات نظرية المؤامرة والتشبث بالماضي والبكاء على التاريخ باستمرار حتى لا نعيد إنتاج حالة الضعف ونستديم الهشاشة والقابلية للاختراق.

لبناء خطاب إعلامي إسلامي معاصر لمواجهة عصر العولمة يجب أن ننطلق من نقد الذات. فخطابنا يضعف بسبب أننا نقع فريسة تناقضات نابغة من الثنائيات المتناقضة خاصة ثنائية (الذات والآخر) في ظل غياب الحوار مع الذات. على الخطاب الموجه للداخل أن يتجاوز حالة التناقضات التي تضعف دوره في توجيه الأمة مثل التناقض المفتعل بين القومية والدين في العالم العربي. على الخطاب الإعلامي أن يتجاوز ذلك التناقض لأن الدين لا يتعارض مع القومية؛ بل على العكس يمكن أن يساهم الدين في توحيد الأمة العربية.

ثالثاً: تفعيل دور المثقف:

الحديث عن الخطاب الإعلامي لا بد أن يشمل الإشارة إلى دور المثقف (العربي المسلم) بوصفه ركناً أساسياً في بناء الخطاب الإعلامي ذلك لما يتمتع به المثقف من إدراك لطبيعة الجمهور المستهدف في الداخل والخارج، وخصائص البيئة المحلية والدولية وتحديات الواقع وبالتالي سمات الخطاب المطلوب. وهذا يستلزم وجود المثقف المسلم الملتزم . والالتزام يقوم على الإيمان بالقضية وإدراك الرسالة والوعي بالدور والاستقلال الذاتي في الموقف والرؤية. حيث ينبغي أن يتحدد موقف المثقف بمعيار الحق والموضوعية وأن تنطلق رؤيته من التصور الإسلامي. إن توافر مثل هذه الخصائص في المثقف تشكل الأساس للنقلة التصورية الإعتقادية لنقل المثقف من تلك الحالة – حالة التسطيح الفكري والتقلب في المواقف وعدم الثبات على المبدأ لضعف العمل الديني وغياب البعد الرسالي وانعدام الالتزام الأخلاقي.

إن المثقف المطلوب هو من يتمثل قيم الإسلام وعناصر الثقافة الإسلامية وأنماط السلوك الرفيعة في المجتمع المسلم، فيكون هو القدوة في القول والعمل ويقوم بوظيفة التنوير؛ وهو الذي يلعب دوراً تربوياً وتعبوياً. فهو الذي يستنهض الجماهير نحو التغيير، ويمثل نبزاً يهتدي به الشعب في مسيرته الحضارية. المثقف بهذا الشمول يعول عليه لحمل لواء التغيير والتطور في المجتمع وهو الذي يعبر عن نبض الجماهير وحركة المجتمع وصيرورته. وبهذا الفهم ينبغي النظر لدور المثقف في المجتمع المسلم وفي بناء الخطاب الإعلامي.

المثقف هو جزء من النخبة (Elite) وقادة الرأي – نخبة مؤثرة في المجتمع وليس نخبة بالمعنى السلبي- "صفوة منعزلة عن الجماهير". بل أن ما يميزه هو الوعي وما يعطيه الوزن والقيمة في المجتمع هو درجة تفاعله مع الجماهير والتعبير عن آرائها وتطلعاتها. بذلك التأثير وبذلك الفاعلية والتفاعل يستطيع المثقف أن يبني له مركزاً اجتماعياً مرموقاً. ويمكنه بحكم موقعه وهيئته في المجتمع أن يطرح أمام الجمهور آراء ينظر إليها باعتبارها نماذج يجب أن تحتذى وتحترم. ومن خلال وسائل الاتصال الجماهيري يستطيع المثقف وكجزء من قادة الرأي " أن يطرح أمام جماهير مجتمعه القيم والاتجاهات الجديدة ويساهم في تكوين صور قومية للمجتمعات الأخرى لدى الجماهير وفي صياغة القيم والتفضيلات والأهداف ليتبناها الآخرون."^{١٨}

ويتمتع المثقف بالقدرة على الإقناع، والاستمالة، والتعبئة، وهو يساهم في تشكيل الرأي العام. ولكن تتوقف مساهمة المثقفين هذه على تماسكهم وموقف النخبة الحاكمة منهم، واتجاهاتهم إزاء الحياة السياسية، وقضايا المجتمع. كل ذلك ينبغي أن يشكل المثقف مع المفكر والإعلامي وبقية عناصر قادة الرأي أهم المرجعيات في صياغة الخطاب الإعلامي المسلم.

رابعاً: **توظيف المؤسسات لمواجهة التحديات:**

المؤسسات المقصودة هي المؤسسات العربية بشقيها الرسمية والشعبية. بالأولى نعني المؤسسات الإقليمية العربية والإسلامية، وبالثانية نعني مؤسسات المجتمع المدني:

(أ) مؤسسات المجتمع المدني:

يرجع مفهوم "المجتمع المدني" إلى عصر النهضة أو قرون التحول في أوروبا (١٥٠٠-١٨٠٠). وارتبط بالتحول الاقتصادي ونمو التجارة وانفصال الاقتصاد عن الدولة فنمت مؤسسات المجتمع خارج الدولة أو خارج المنظومة الرسمية للدولة حتى أصبح المجتمع أقوى من الدولة بسبب قوته الاقتصادية وتشابك مصالح الجماعات فظهر مفهوم أو مبدأ "الدولة تنظم ولا تتدخل".^{١٩} فأصبحت فكرة المجتمع المدني تعني "إيجاد مرجعية اجتماعية خارج الدولة، والبحث عن إطار أو شكل للمشاركة السياسية أكثر مباشرة من البرلمانات".^{٢٠} ظهر المفهوم مرة أخرى في الثمانينات عندما انتصرت نقابات العمال (نقابة التضامن) في بولندا وحققت تغييراً سياسياً اعتبره البعض انتصاراً للمجتمع المدني.

الملاحظ أن المفهوم نفسه عندما ظهر في أوروبا كان نتيجة لأزمات ووعي. ظهر الآن في الوطن العربي المجتمع المدني بأسباب وظروف مشابهة لأوروبا في عصور التنوير حيث يمر المجتمع العربي بأزمات كما يشهد حركة ووعي ناهضة. الأزمة في الوطن العربي الآن هي وليدة مشكلات الشرعية وطبيعة الأنظمة الحاكمة. أما حركة الوعي فهي نتاج لزيادة التعليم وظهور جيل جديد واعٍ وطموح أصبح يتطلع لوضع سياسي وثقافي واقتصادي جديد فانتظم في مؤسسات المجتمع المدني. وقد أدركت الولايات المتحدة الأمريكية خطر هذا الجيل الواعي الذي ظهر من خلال منظومة المجتمع المدني وأدركت أن هذا الجيل ربما يصل إلى السلطة قريباً لذلك سعت لاحتوائه من خلال مشروعها المزعوم المسمى الشرق الأوسط الجديد ومبادرة الشراكة الأمريكية الشرق أوسطية (إبريل ٢٠٠٤). وتقدم أمريكا من خلال هذه المبادرة أكثر من ألف مليون دولار من المساعدات لدعم الإصلاح ومساعدة النساء والشباب. هذه الأجندة الخفية يجب إدراكها وتقويت الفرصة على محاولة الاختراق الأمريكي وتوجيه مؤسسات المجتمع المدني العربي نحو التصدي للتحديات الجديدة التي تواجه الأمة العربية الإسلامية.

(ب) المؤسسات الرسمية

إن من العلل التي يعاني منها المجتمع العربي هي عجز المؤسسات الرسمية العربية والإسلامية مثل جامعة الدول العربية ومؤتمر الدول الإسلامية ومنظمة الوحدة الأفريقية والإتحاد الأفريقي وما تفرع منها من منظمات متخصصة. هذا العجز "ليس ظاهرة خارجية معزولة بل هو مرآة لعجز الدول الأعضاء ومؤسساتها الرسمية ... إنها الوليد الشرعي لأحوالها".^{٢١} من ملامح العجز:

- عجز القرارات المتخذة حيث تظل حبر على ورق لغياب الإرادة السياسية التي تنفذها.
- ضعف العلاقات البينية: علاقات الدول العربية والإسلامية بالدول الغربية أقوى أضعاف مضاعفة من علاقاتها ببعضها بعضاً.
- عجز الاجتهاد السياسي: الحكم الأوتوغراطي يقفل باب الاجتهاد الفكري والسياسي ويقفل منافذ المشاركة في الشأن العام فيؤدي ذلك إلى ركود فكري وغياب المبادرات السياسية عكس ما يحدث في الغرب حيث نجد أن مراكز البحوث تنشط بفاعلية وتشكل دراساتها رافداً مستمراً لصناع القرارات بينما يتجاهل الحكام في الوطن العربي والإسلامي دور هذه المستودعات الفكرية. فينبغي أن تتاح الفرصة لهذه المؤسسات في المشاركة في عملية صناعة القرارات والسياسات حتى يستطيع الخبراء والعلماء والباحثون المشاركة بفاعلية في التخطيط ووضع الاستراتيجيات المناسبة لمواجهة التحديات. فالغرب يواجهنا بمؤسساته وعلمائه لا بحكوماته فقط.

خامساً: إصلاح التعليم:

لقد نهضت الأمم بالعلم وذلك لأنها اهتمت بالتعليم. لكي يكون التعليم أداة فاعلة في مواجهة التحديات يجب أن يتم إصلاحه ويجب أن يعاد النظر فيه من حيث الفلسفة والمنهج. فمن ناحية الفلسفة نحتاج لنظرة ابستمولوجية لأسلمة التعليم مع مواكبته للعصر. اعتقد إن من أكبر المعضلات التي تواجه الأمة وتقف في طريق النهوض من ركودها الحضاري هي مشكلة التعليم خاصة في جانب الازدواجية التي يعاني منها التعليم الذي ينقسم إلى ديني ودينيوي.

إن التعليم في وطننا الإسلامي يعاني من مشكلات كثيرة ذات أبعاد متعددة ومتداخلة لها أسبابها ومسبباتها: اجتماعية- اقتصادية - سياسية وثقافية. والحقيقة إن أزمة التعليم عندنا هي انعكاس طبيعي ونتاج حتمي لإفرازات الظروف التي مرت بها المنطقة على مدار تاريخها المعاصر. يمكن تلخيص أهم مشكلات التعليم والتربية الراهنة كما جاء في تقرير اللجنة الدولية لليونسكو حول التربية في العالم الثالث ومن بينها العالم الإسلامي نشير هنا إلى أهمها:^{٢٢}

- ١- غياب الفلسفة التعليمية الواضحة.
- ٢- غياب التخطيط التعليمي
- ٣- تأخر النظام التعليمي عن مواجهة التغيرات العالمية وعدم قدرته على استشراف المستقبل
- ٤- غياب الطابع القومي للتعليم
- ٥- تعدد برامج إصلاح التعليم كرد فعل لحركة ومتغيرات خارجية

- ٦- جزئية الإصلاحات التعليمية دون وجود نظرة شاملة للتطوير
- ٧- عدم التنسيق والتكامل بين التربية المدرسية والتربية اللامدرسية (الإعلامية والثقافية).
- ٨- تخلف المقررات والمناهج والوسائل والأدوات التعليمية سواء ما يتصل منها بغلبة الطابع النظري للمقررات وصلابتها وجمودها وإخفاقها عن مسايرة ومواكبة التطورات المختلفة وغياب المنهج الذي يمكن التلاميذ من التفكير بأسلوب علمي بدلاً من التلقين وحشو الأذهان بالمعلومات.

اقترح أحد الباحثين خمسة أهداف كخطة لأسلمة التعليم تشمل: ١- التمكين من العلوم الحديثة، ٢- التمكين من التراث، ٣- إثبات الصلة بين الإسلام ومختلف فروع المعرفة الحديثة، ٤- البحث عن وسائل تمكنا من التأليف المبدع بين التراث والمعرفة المعاصرة ٥- وضع الفكر الإسلامي في المسار الذي يتيح له إنجاز النموذج الإلهي.^{٢٣}

إن منهج التعليم يجب أن يحتوي على تربية وطنية وقومية وتاريخ الحضارة الإسلامية وتعريف الطالب بتراثه وعظمة ثقافته وحضارته العربية الإسلامية لغرس قيم العزة بهويته في نفسه حتى لا يتأثر بألق وبهرج الثقافة المادية العلمانية الزائفة.

خاتمة:

نحن نحتاج لكل ذلك وأكثر لمواجهة منظومة معقدة من التحديات (بعيداً من نظرية المؤامرة) منها:

- تحديات بناء البشر.
- تحديات بناء العقل.
- تحديات إصلاح التعليم ومواكبة الحداثة
- معالجة الفجوات التي يعاني منها الوطن العربي الإسلامي مثل فجوة التصورات وفجوة القيادات وفجوة الأفكار (كما أشار إلى ذلك محمد حسنين هيكل في قناة الجزيرة، ٢٠٠٤/٩/٢)..
- تحديات الوحدة الإسلامية
- تحديات التخلف
- تحديات العولمة
- تحديات الهوية ومسألة الشرعية وغياب الديمقراطية

إذن نحتاج إلى توظيف كل تلك الأدوات والآليات وتصويبها نحو هذه الأزمات الداخلية والتحديات الخارجية التي يطرحها عصر العولمة.

الهوامش

Richard M. Eaton, Islamic History as Global History. American Historical Association, 1990.

- ٢- المصدر نفسه
- ٣- مارشال هودجسون، تصور تاريخ العالم، مجلة الاجتهاد، العددان ٢٦ و ٢٧ شتاء وربيع ١٩٩٥، ص ٤٨
- ٤- الفضل شلق، تاريخ المجتمعات الإسلامية، مجلة الاجتهاد، المصدر السابق، ص ص ٢٩٢ - ٢٩٤.
- ٥- ريتشارد هريير دكمجيان الأصولية في العالم العربي (ترجمة وتعليق د. عبد الوارث سعيد)، المنصورة: دار الوفاء، ١٩٨٥، ص ص ٢٥ - ٣٢.
- ٦- المصدر نفسه.
- ٧- أحمد محمد جاد عبد الرازق، فلسفة المشروع الحضاري بين الإحياء الإسلامي والتحديث الغربي، الجزء الأول، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، ١٩٩٥، ص ص ٣٤٠ - ٣٥٠
- ٨- المصدر نفسه، ص ٣٨٠
- ٩- المصدر نفسه، ص ٤٠٩
- ١٠- محمد فراس أدنى التجديد الإسلامي: حركة تاريخية نظرية لم تكتمل، عرض كتاب خطاب التجديد الإسلامي، تأليف جماعي، دمشق، دارا لفكر، ٢٠٠٤. أنظر Islamonline.com, 1/12/2004.
- ١١- المصدر نفسه
- ١٢- المصدر نفسه
- ١٣- الإسلام وقضايا العصر: الموقف من الحداثة، إسلام أو لاين، مارس ٢٠٠٢.
- ١٤- عبد الوهاب المسيري، معالم الخطاب الإسلامي الجديد، إسلام أو لاين، مارس ٢٠٠٢
- ١٥- المصدر نفسه
- ١٦- دكتور محمود محمد، الإعلام وموقف الكتاب العربي السعودي، ط ١، ص ٤٧. في: الدكتور عبد الوهاب كحيل، الأسس العلمية والتطبيقية للإعلام الإسلامي، بيروت: عالم الكتب، ١٩٨٥، ص ٢٠
- ١٧- عبد الوهاب كحيل، الأسس العلمية والتطبيقية للإعلام الإسلامي، بيروت: عالم الكتب، ١٩٨٥، ص ٢١
- ١٨- عبد الغفار رشاد، الرأي العام، دراسة في النتائج السياسية، القاهرة، ١٩٨٤، ص ١٣٢.
- ١٩- محمد علي أحمد، أصول علم الاجتماع السياسي، الأسس النظرية والمنهجية، الإسكندرية، دار المعرفة، (د. ت.)، ص ١٧٦.
- ٢٠- الدكتور عزمي بشارة، المجتمع المدني، دراسة نقدية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٨، ص ص ٣٠ - ٣٣.

- ٢١ - الصادق المهدي(رئيس الوزراء السودان الأسبق)، "مكامن العجز الذاتية في المؤسسات الرسمية العربية والإسلامية، ورقة قدمت لندوة "أبعاد أحداث الحادي عشر من سبتمبر (نظرة استراتيجية)" نظمتها جامعة أفريقيا العالمية السودان، الخرطوم، ٣/١١/٢٠٠٢م.
- ٢٢ - تقرير اللجنة الدولية لليونسكو حول تطوير التربية في العالم، الكويت، ١٩٧٩، ص ٧.
- ٢٣ - ضياء الدين سردار، مجلة الفكر العربي، العدد ٧٥، شتاء ١٩٩٤، ص ١٠٥.